

ونجم عن ذلك حركة تمرد . وبنى التتر حصناً على بعد ثمانين كيلو متراً من قازان وهيئوا أنفسهم جهاراً للقيام بهجوم لاحق على الروس . وفي مطلع آذار مارس قاموا بقتل جامعي الفراء . وثار قطاع من قازان على الروس رغم أن الشعب كان يفتقر إلى السلاح إلى أبعد الحدود . ومع ذلك فقد السترييلتسي ثلاثمائة وخمسين من رجالهم بينما فقد القوزاق أربعمائة وخمسين ، وكانت الهزيمة صاعقة حتى بدا للبعض أن قازان التي تم فتحها بمثل ما وصفناه من نصر كانت بعد كل شيء مكاناً يتعذر الاحتفاظ به ، وحتى قام عدد من البويار بتقديم نصيحة مدانة للقيصر بأن يسحب حاميته من قازان ويتخلى نهائياً عن المدينة للمسلمين . ومثل هذا الجبن الذي بدا من مستشاريه كان ننتزع من إيقان جزءاً من مجده ومن هيئته كبطل للمسيحية ، وقد جعله هذا يفترض أن وراء ما كان يتلقاه من مداهنة ورياء كان يختبئ نوع من الحسد والبغضاء .

هذه الأخبار السيئة وصلت للقيصر في العاشر من آذار مارس وفي اليوم التالي أصبح في حالة خطيرة من المرض إذ انتابته حمى قال عنها الأطباء إنها غير قابلة للشفاء . ولم تكن هذه الحمى وباء الطاعون لأن هذا الوباء كان قد تجنب موسكو ولكنها لم تكن أفضل منه لأنها جعلت القيصر طريح الفراش دون قدرة على الحركة وهو ينتظر الموت . وانتشر هذا النبا السيء بسرعة الصاعقة مما دفع شعب موسكو لأن يسرع نحو الكرملين حيث حاصر القصر وهو يجار بالصلاة والدعاء . لقد كان الشعب يحب سيده كثيراً وقد رأى في هذا الهجوم المفاجيء يد الله بدون شك ولكن أحداً لم يكن يعتقد مع ذلك بأن مرض إيقان كان بسبب خطابه لأن ثقاه كان واضحاً لجميع العيون وقد أرسله الله هبة لهم ولم يكن سوى قديس على هذه الأرض . بل إن الشعب كان يعتقد بكل تواضع بأن خطاياهم هو كانت أكبر مما استطاع أن يتصور لأن الله كان يهدده بسحب الهدية التي منحه إياها عندما أرسل إيقان .